

فلسفة الاصلاح

الاستاذ محمد محمود زيتون

ليس من المعجيب أن نكون الدعوة إلى الاصلاح الاجتماعى قديمة قدم الانسان ، فقد كانت العالم من قبل غير منسجم مع التزمت البشرية ، لأن شيئاً جديداً طرأ على العالم وهو (العقل) الذى لم يكن شيئاً مذكوراً .

أخذ الانسان بهذا السلاح ، وحاول استخدامه ، وهو فى موقف المقاومة ، إزاء جميع القوى المحتشدة عليه ، والتي ليس له طاقة بها . حيثذاك شعر بأنه أقل من خصمه الحيوان : فالحيوان مسلح بظفره ونابه وقرنه ، أما هو فليس له من ذلك شئ . ، وإذن فهو مضطر إلى تقليده ليدفع عن نفسه كل العوادي بحجر يرمى به أو غصن يتخذة رفيقاً له أو ما شابه ذلك مما يقع تحت سمه وبصره .

وهكذا كان الانسان فى بدء حياته « حيواناً صناعياً » لأنه ألقى سلاح العقل واعتمد سلاح الوحشية ، ولا سبيل إلى إنقاذ الانسان من هذه الوعدة التي تردى فيها والتي كادت تحشره فى

صدره ضمت بشوق وحنان ، وإلا فى أن يفرمكم بالدطف والشفقة ، وإلا فى أن يبذل لكم من ماله ومن سلطانه ، وإلا أن يعقد المزم على شأن يخصكم به ليكون كفارة ما كان . وانطوت السنون وهو لا ينسى ... والزوجة ، وهى فتاة حمقاء أعجزها أن تستميل قلب أبيك بمدان انكشف خبيثها وبدت شيطانيتهما ، فانسكرت شوكتها وعاشت بينكم غريبة تمنى مرارة الذلة وقسوة الخضوع ، لا تحس الراحة ولا الهدوء ولا اللذة ... أما أنتم فقد ربطتكم الشدة بروابط الصداقة وجمعتكم القسوة بأواصر المحبة ، وأنتم ما تزالون فى أول الطريق ...

لقد عقد أبوك المزم على شأن يخصكم به ليكون كفارة الزلة التي ارتكب على حين غفلة منه ، فإذا كان منه ، يا صاحبي ؟ وماذا كان ؟

لأسل محمود مهييب

زمرة الوحوش إلا بالرسالات السماوية تملو به إلى ما يجب أن يكون عليه من تسام بالروح ، وعلو بالعقل ، وترفع عن الحيوانية التي أساس العملة فيها الظفر والناب والقرن .

والحكمة من هذه الرسائل السماوية النهموض بالسلاح الانسانى إلى النواحي الايجابية فى الحياة ، وتهذيب كل اللغات اليدوية فالروحانية والماشية ، على أحسن وجه وأقوم سبيل :

ولم تكن الرسائل فى الحقيقة بدعا من الأمر ، وإنما هى من صميم الحاجة الانسانية وليست منها ببعيد ، فإذا ضلت الانسانية سبيلها ، فما عليها إلا أن تعود الى تعاليم الرسائل ، فإذا اهتدت فليس معنى ذلك أنها جاءت بجديد ، وإنما هى عادت إلى حيث يجب أن تعود .

وتاريخ الفكر البشرى شاهد عدل على ذلك : ففلسفة اليونان - والقدامى منهم بصفة خاصة - ظواهرها من الزمت حيارى إزاء صمم فيه من فوضى فى كل مرافق الحياة السياسية والاجتماعية والفردية والروحانية . وهم عندما أرادوا لهذه الأحوال إصلاحاً بدعوا باصلاح القتل لأنه السلاح الذى إذا شحذ جيداً كان أقطع وأمنع مما سواه ، بل هو وحده الموصل الجيد للفرض المنشود ، وأقرب المسالك اليه .

شاعت السفطائية قبل سقراط ؛ فسادت القوضى ، فى الفكر والخلق والدين والسياسة ، وإذا بسقراط يرمى بأول سهم فى هذا الميدان ويطلق تلك الحكمة الخالدة (اعرف نفسك) التي كان قد قرأها على باب معبد « دلف » وعندما سئل عن مبلغ علمه قال « كل ما أعرف هو أنى لا أعرف » وهذا من من غير شك بدء طبيعى ؛ لأن المأرف لا يعرف وإنما سقراط (نبي غير رسمي) أراد أن يبشر برسالة الفكر فحطم كبرياء السفطائيين وغرورهم وتعاليمهم ، فهو يمان أنه لا يعلم شيئاً لأنه عالم أما هم فيدعون علم كل شئ ، لأنهم جهال .

وببلاد اليونان جبال بينها شعاب تقوم فيها مدن منفصل بعضها عن بعض ومنذ ابتليت بالفز والفارسي ذاعت فيها القوضى من كل لون . فلما تعمق أثر هذا الجرح السياسى فى خواطر المفكرين الأحرار ، وضع سبيل الخلاص ، وإذا بسقراط

فلسفية يتخطى بها كل الحواجز والموانع التي تحول دون غرضه فأحصى في كتاب خاص «قواعد لمداية العقل» لأن شيطاننا ما كرا *genie malin* - على حد تعبيره - يثبت بأفكاره ويضلله ولم يلبث أن وضع كتابه الآخر عن «المنهج للبحث عن الحقيقة في العلوم» وقال فيه أول ما قال «العقل أعدل الأشياء توزعا بين الناس» فكانت هذه الجملة بمثابة القبيلة التي ألقاها «ديكارت» على الأرستقراطية المزعومة فخطم أوكار الاحتكار العلمي، وأخرج العلم من زوايا الأديار والصوامع، إلى ضوء النهار الساطع، ونجحت الثورة الديكارتية

وجاء «فرنسيس بيكون» فخطم «أصنام العقل» التي خلصها فيها إلى :-

١ - أصنام القبيلة : كناية عما يرثه الإنسان من جنسه البشري كتصديق المرافين والنجمين الذين إذا صدق أحدهم مرة ظن الإنسان أن النجمين صادقون، وكذب النجميون ولو صدقوا .

٢ - أصنام المسرح : كناية عن تأثر الشخص بالشعورين قبله مثله كمثل المتفرج الذي يقلد الممثل إذا أجاد دوره .

٣ - أصنام الدوق : كناية عن العملة التي تتعامل بها في المجتمع وهي اللغة التي تستعبدنا ألقاظها وممانها .

٤ - أصنام الكهف : كناية عما لكل فرد من مستودع شعيق ، في قرارة نفسه تنحدر إليه مؤثرات من الخارج سواء من الورانة أو البيئة أو ما سواهما .

ولكن نقيم أساس الإصلاح لا بد من تحطيم هذه الأصنام التي تستعبد العقل وتستبد به ، وتحول بينه وبين التبصر والتدبر مما لا يصلح منه نظام . وبناء المجتمع لا ينهض قوياً متيناً إلا إذا أتينا عليها من القواعد .

هذا عرض سريع لفلسفة الإصلاح منذ أقدم المصور وهو تاريخ جدير بالنظر والاعتبار .

فإذا نحن أردنا لهذا المجتمع الحالي إصلاحاً ، وقتنا منه على أشياء منها : أن المجتمع الآن نهب لاشتات النوازع الوحشية ، والشهوات البهيمية ، حتى نأى الفرد والمجموع بما من ينبوع

«المعلم» الأول يتحدث ويعلم ويمشي في الأسواق ورناد النوادي لينشر دعوته مؤمناً بسلاحه القوي وهو العقل فيتفلسف . وأول ما يتفلسف يقيم هيكلًا فكرياً للعقل يسميه الفلاسفة «نظرية المعرفة» ويسير على نهجه من بعده أفلاطون وأرسطو ، ويكمل اللاحق منهم ما لم يتح للسابق .

ومن أجل هذا نرى دائماً «نظرية السياسة» آخر حلقة من حلقات الفلسفة اليونانية ، وقد سبقتها سلسلة طويلة عريضة من تعميمات فكرية في الطبيعة والنفس والأخلاق .

والسياسة عند اليونان هي غاية الإصلاح ، أما العقل فهو نقطة البدء والثابتة هي التي تحفز على الحركة ، وتثبت على العمل .

وكان أفلاطون أكثر تمسكاً بالإصلاح ، وأعزذ إنتاجاً في مجاله ، فقد رسم في «الجمهورية» رسماً تخطيطياً يارعا للمجتمع اليوناني ، وذلك بعد عرض لنظرية «المثل» التي عمود ارتكازها العقل ، والتي توحى بأسبقية البزان على الموزون ، وضرورة «القيمة» في «الحكم»

وليس أدل على نمو هذا الاتجاه ، وصدق النية فيه ، من إصلاح الفكر الذي نادى به أرسطو إذ وضع «آلة» مصممة الفكر من الوقوع في الخطأ ، وحرص على أن يكون «المنطق» وهو علم هذه الآلة مدخلا لكل علم ، وأساساً لكل تفكير .

وما إن انحدرت البشرية إلى هاويتها السحيقة حتى انتشلتها الرسائل تباعاً ، ونهضت بها إلى درجات السمو ، فلما غفلت عنها أوروبا المتخبطة في دياجير الظلم والظلام ، عنت نفس الحاجة التي صادفت سقراط إذ خلقت منه ظروف بلاده مصالحة اجتماعياً .

وكذلك العالم الإسلامي في العصر الوسيط ، إذ أراد الفارابي أن يقيم دعائم «المدنية الفاضلة» فأنجبه إلى حقيقة النبي ، والسر في صلاحية الرسالة ، ودرس لذلك تفاوت البشر في درجة الخيال وملكة الإلهام ، فإذا أراد أفلاطون أن يكون الفلاسفة ملوكاً والملوك فلاسفة ، فقد أراد الفارابي أن يكون الفلاسفة المصلحون وورثة الأنبياء .

وأحاطت بفرنسا في القرن السادس عشر ظروف سياسية عتيقة كان العقل فيها وقفا على أهل الكنيسة والعلم احتكاراً لهيئة كبار العلماء . فقام «ديكارت» ليدل بدلوه في الإصلاح بمنارة

وصدق الشاعر :

إذا أفسدت أول كل أمر أت أعجازه إلا التواء
وهذا هو أقرب السبل إلى النهاية المنشودة فالعقل لا يدرك
الأمور أحسن الإدراك ، ولا يقدرها التقدير الصحيح ، ولا يدفع
الفهم إلى العمل النافع المأمون ، إلا إذا كان هو نفسه - لها ، وكاملا
متكاملا ، أى حرا طليقا فى تأثيره وتأثيره . كما أن العقل هو الذى
يهدينا إلى الهدف ، ويتحدد له المناهج ، ويتوخى الظروف .

فلنعد إلى العقل نستصلحه أولا لنعلمين عاما على إصلاحه
حتى إذا تم ذلك لم يعد أمام المصلحين إلا مجرى محمد عاما لتيار
الإصلاح السليم « ومن لم يجعل الله له نورا فلا له من نور » .

محمد محمود زيتونه

المصير المحلثون

شمائلهم وعاداتهم

فى القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الكبير

اروارد ولیم لین

نقله إلى العربية الأستاذ

عمرلى طاهر نور

كتاب يقع فى ٤٥٠ صفحة من القطع الكبير وهو سجل
حافل لعادات المصريين وآدابهم وأحوالهم واعتقاداتهم وأساطيرهم
القرن التاسع عشر . يمتاز بوضوح المنهج ودقة التفصيل وتوخى
لحقيقة جمال العرض وتصور الأشياء والأشخاص بالفلم والريشة
تصوراً يعكس لها خصائصها وملاعها فى الزمن والعين على تراخي
الزمن . والكتاب مترجم عن الإنجليزية ترجمه أمينة دقينة تكاد
مع بلاغتها وسهولتها تكون حربية
يطلب الكتاب من إدارة الرسالة ومن جميع المكتبات الشهيرة
والثمن غشون قرشاعنا أجرة البريد .

الرسالة السماوية : فلم يعد للغمير وخز ، ولم يعد القلب يشبى بالخير
والمعروف ، وجد العقل وعكف على أسنانه ، ورائت غشاوة
المادة على النفس الانسانية ، وتجمدت الأكباد ، ارتكنا على
مخترعات « الحيوان الصناعى » الذى أعاد التاريخ ذكراه ، وأصبح
كل همه الآن : الهجوم أو المقاومة ، ولا شئ غير ذلك . فالسياسة
الآن كلها مكر الذئاب ، وروغان الثعالب ، ونجاح الكلاب ،
وجبن النعاج ، وتسلل الفيران .

والدين كذلك هو التراخي والتواء كل والذل والمهوان
والاستكانة والمبودية ، والعملة المتداولة كلها زيف وزور وبهتان
ولا رأس مال لها من دين أو قانون ، ولا رصيد لها يحميها وينقضي
الفسادة ، أما المكسب فهو النهب والسلب والنصب والنين
والفحش .

والتريبة هى الأخرى تخلصت من « العروة الوثقى » وتحملت
من جميع القيود ، فلا كبير ولا صغير ، ولا وازع ولا رادع ، ولا
حرية الانطلاق ، ولا حدود للحجر .

وهكذا فى جميع مرافق المجتمع ، والفوضى شاربة أطنابها
والفيورون فى حيرة عجيبة : أبدأون بإصلاح السياسة أم الاقتصاد
أم التربية ، أم يبدأون بإصلاح الفرد أم المجتمع ؟ وهل يصلحون
الدنيا ليصلاح الدين ، أم هل يصلحون الدين لتصلح الدنيا ؟ وظل
هذا التخبط وسيظل حتى يعود الأمر إلى نصابه .

والحق أنه ما دامت الأسنام قاعة فى العبد والمنزل والمدرسة
والسوق فلن يصلح الفرد ولا المجتمع . وسبيل الخلاص معروف ،
ولا مناص من السير فيه لأنه طبيعى ، وسهل ميسور : وهو أن
نهدى إلى غاية واضحة نبيلة ، ونتجه جميع الأنظار إليها وتستوعبها
وتؤمن بها . والمنطق السليم يقول بأن هذه الغاية هى « الله سبحانه »
وتعالى ، وهو الأول والآخر ، وهو الذى خلق العقل أول ما خلق .
والآن وبعد أن انحدرت الانسانية إلى هذه الهاوية المادية وبعد
إعفائها صوت العقل لا سبيل إلى انتظام الحل إلا بإصلاح العقل
وتخليصه من أوامره وإيقاظه من أسنانه ، وهذا هو البدء الصحيح